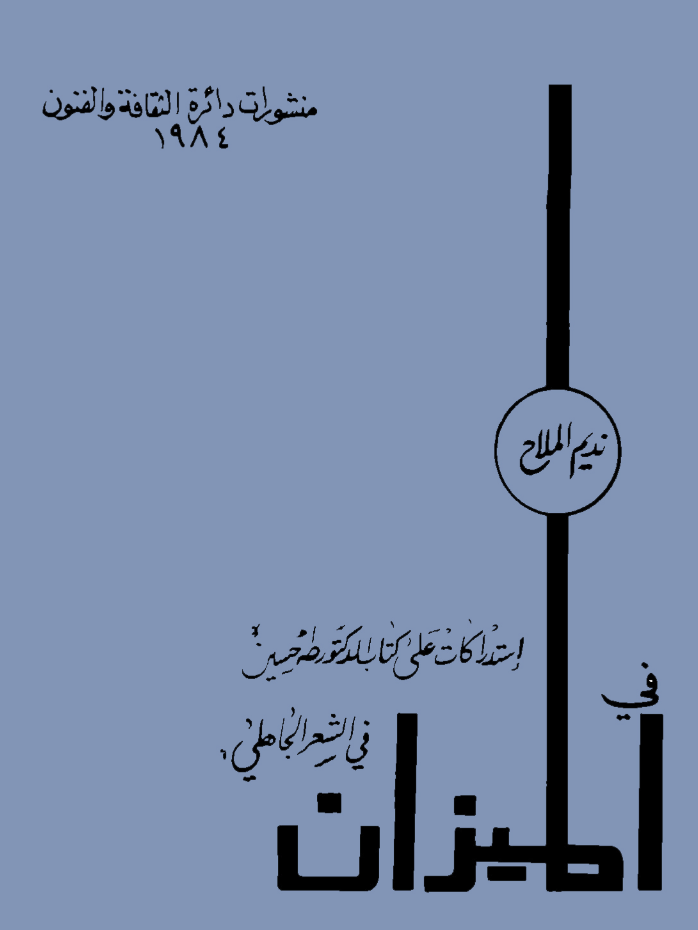
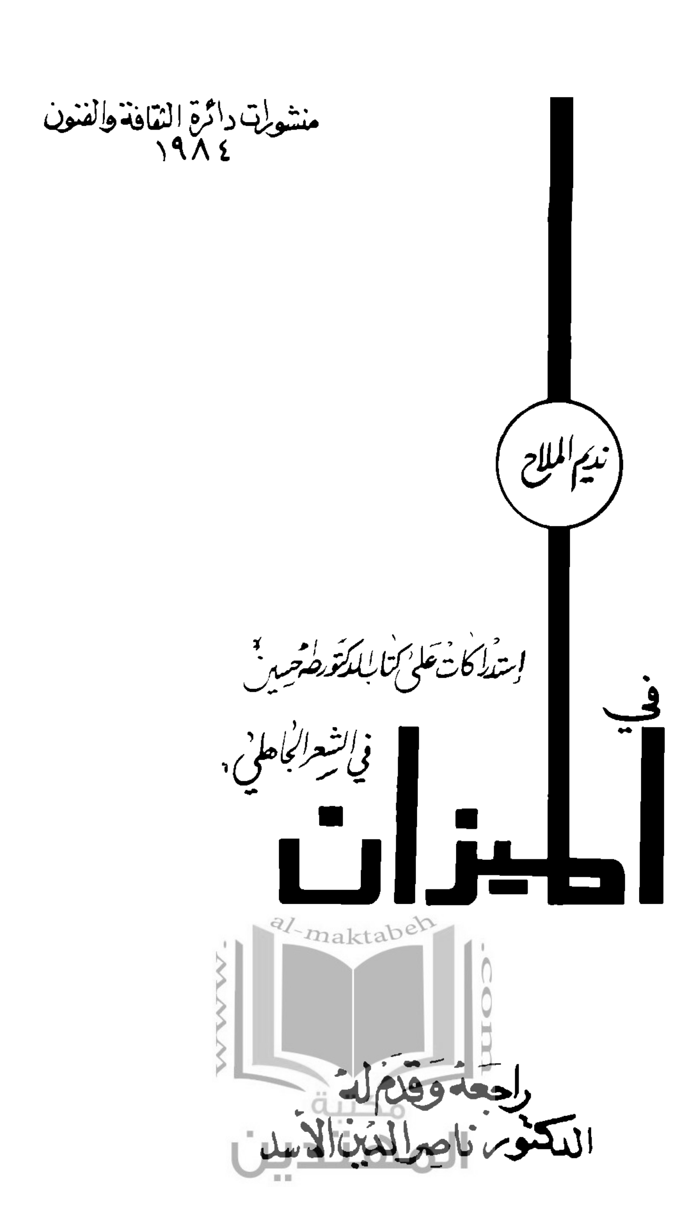


راجعه وقدم له
الدكتور ناصر الدين الأسد


منشورات دائرة الثقافة والفنون
١٩٨٤
نديم الملاح
في الميزان
استدراكات على كتاب الدكتور طه حسين
في الشعر الجاهلي
راجعه وقدم له
الدكتور ناصر الدين الأسد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمــــة

للأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد
رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية

لم يكد الدكتور طه حسين ، أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، ينشر كتابه "في الشعر الجاهلي"[١] في أواخر شهر مارس (آذار) سنة ١٩٢٦ م حتى اصطخبت من حوله تلك الضجة الكبرى التي لا يزال نفر من الأحياء يذكر بعض ضجيجها حينئذ وما خلّفته من دويّ لم ينقطع صداه حتى يومنا هذا

فبعد شهرين من صدور الكتاب[٢] قدّم أحد طلاب القسم العالي بالأزهر[٣] بلاغا الى النائب العام في مصر يتّهم فيه الدكتور طه حسين بأن في كتابه الذي نشره على الجمهور ... طعنا صريحا في القرآن العظيم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا

---

(١) الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م

(٢) في ١٩٢٦/٥/٣٠ م

(٣) هو الشيخ خليل حسنين .

الكتاب السماوي الكريم ، الى آخر ما ذكره في بلاغه "

وبعد نحو أسبوع[١] أرسل شيخ الجامع الأزهر الى النائب العام "خطابا يبلغه به تقريراً رفعه علماء الجامع الأزهر عن كتاب ألّفه طه حسين المدرّس بالجامعة المصرية أسماه : في الشعر الجاهلي ، كذّب فيه القرآن صراحة ، وطعن فيه على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى نسبه الشريف وهاج بذلك ثائرة المتدينين ، وأتى فيه بما يخلّ بالنظم العامّة ويدعو الناس للفوضى . وطلب اتخاذ الوسائل القانونية الفعّالة الناجعة ضدّ هذا الطعن على دين الدولة الرسمي ، وتقديمه للمحاكمة . وقد أرفق بهذا البلاغ صورة من تقرير أصحاب الفضيلة العلماء الذي أشار اليه"[٢] .

وبعد نحو ثلاثة أشهر[٣] قدّم أحد أعضاء مجلس النواب المصري[٤] بلاغاً آخر يتهم فيه

---

(١) في ١٩٢٦/٦/٥ م .

(٢) نصّ هذا التقرير في كتاب " تحت راية القرآن " لمصطفى صادق الرافعي ، ص : ١٦٧ - ١٧٢ ، الطبعة السابعة سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

(٣) في ١٩٢٦/٩/١٤ م .

(٤) هو : عبدالحميد البنّان .

الدكتور طه حسين وكتابه بتهم مشابهة ، بعد مناقشات مستفيضة في المجلس لهذا الكتاب ولموقف مؤلفه ، ذكر فيها وزير المعارف المصري حينئذ أن " الجامعة منعت انتشار الكتاب بشراء جميع النسخ من المكاتب وحصرتها في مخازنها ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ أخرى منه " وكذلك قال رئيس الوزراء عدلي يكن باشا خلال هذه المناقشات الحادّة ما يلي : " وكتبت لفضيلة شيخ الأزهر بما قرره وزير المعارف ، ووافقته عليه ، من حبس الكتاب ، أي منع انتشاره "[١] .

وكان الدكتور طه حسين غائبا عن مصر في رحلته الصيفية السنوية ، وحين عاد بدأ رئيس نيابة مصر[٢] التحقيق معه[٣] ، واستمع الى أقوال المبلّغين ، وانتهى الى قراره بأن " تحفظ الأوراق اداريا " بعد نحو ستة أشهر من التحقيق الذي تضمّن ـ بما فيه من أسئلة واجابات وبلاغات الشكوى ـ الردود الأولى على الدكتور طه حسين

---

(١) انظر أطرافاً من هذه المناقشات في " تحت راية القرآن " ص : ٣٨٤ ـ ٤٠٩ .

(٢) هو : محمد نور .

(٣) في ١٩/١٠/١٩٢٦ م .

وكتابه[1] .

وتـوالَى النقد في مقـالات نشرتهـا الصحف حينئذ وجمعها أصحابها في كتب من بعد ، أو في كتب ألّفها أصحابها لهذه الغاية ونشروها . وكان من أوائل الذين تصدّوا لنقد هذا الكتاب مصطفى صادق الرافعي في فصول من كتابه " تحت راية القرآن "[2] ومحمد فريد وجدي في كتابه " نقد كتاب الشعر الجاهلي "[3] وربما كـان من أواخر الكتب التـي صـدرت في ابّـان تـلك الحـقـبـة وغلوائها ـ جامعـة لبعض المقالات المنشـورة في الصـحـف ـ كـتـاب مـحـمـد أحـمـد الغمـراوي : " النقد التحليـلي لكتـاب في الأدب الجاهلي " وله مقدمة مسهبة كتبها الأمير شكيب أرسلان[4] . وبين الكتابين الأولَيْن والكتاب الثالث

---

(١) أكثر هذه التفصيـلات مستخرج من " قـرار النيابـة في كتاب الشعر الجاهلي " طبعته مطبعة الشباب ، بمصر (تاريخ الطبع غير مذكور) .

(٢) سنة ١٩٢٦ م .

(٣) صدر في اكتوبر ١٩٢٦ وفي مقدمته أنه قرأ في الجرائد " فصولا ضافية الذيول لبعض شيوخ الأدب في المدارس المصرية يشنّون فيهـا عـلى هـذا الكتـاب حـربـا طاحنـة تـذهب بـاليـابس والأخضر ... "

(٤) سنة ١٩٢٩ ، ونشرت نواته في سلسلة مقالات في جريدة البلاغ في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ م ـ كما ذكر المؤلف في مقدمته ص : نح ، ثم عدّلها ووسعها وأضاف اليها .

صدرت عدة كتب ، نذكر بعضها على غير ترتيب لزمن صدورها : " الشهاب الراصد " لمحمد لطفي جمعة ، و " نقض كتاب في الشعر الجاهلي " لمحمد الخضر حسين ، و " محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي " لمحمد الخضري .

وكل هذا ينتهي بنا الى أن كتاب " في الشعر الجاهلي " تناوله النقد المفصل في مقالات وفصول وكُتُب نُشِر أكثرها في السنة نفسها التي صدر فيها وهي سنة ١٩٢٦ م ، وان كان بعض هذه المقالات أعاد أصحابها النظر فيها وجمعوها في كتب خلال السنوات الثلاث التالية .

وحين صدرت مجلة " الحكمة " في عمّان في منتصف سنة ١٩٣٢ م(١) ، أخذ صاحبها العالم المحامي الشيخ نديم الملّاح ينشر فيها فصولا في نقد كتاب " في الشعر الجاهلي " مع أن هذا الكتاب لم يعد يتداوله القرّاء ، حين صدرت مجلة " الحكمة " . فقد غيّر عنوانه حين أعاد طباعته في السنة التالية ، فجعله " في الأدب الجاهلي " واتخذ من هذا العنوان الجديد ذريعة الى حذف

---

(١) صدر العدد الأول في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥١ هـ - تموز ١٩٣٢ م .

بعض ما جاء في الطبعة الأولى من الكتاب بعنوانه القديم ، وخاصة اشاراته الى قصص القرآن الكريم والى بعض الأمور الدينية ، وهي التي أثارت عليه أشدّ السخط حينئذ . وكذلك اتخذ المؤلف هذا العنوان الجديد ذريعة الى اضافة فصول كثيرة جعلت الكتاب في ما يقارب ثلاثة أمثال حجمه الأول . وبهذا العنوان الجديد ، وفي هذه الصور من التعديل بالحذف والزيادة ، تكرر طبع الكتاب بعدئذ مراراً . أمّا نسخ الكتاب الأول ، بعنوانه القديم وبطبعته الأولى ، فلم يبق منها شيء الّا النزر القليل الذي ظلّ بين أيدي القرّاء بعد أن كانوا اشتروه في الشهور الأولى من نشره ، اذ أن الكتاب في تلك الطبعة الأولى " صودر ورفع من الأسواق "[1] على الرغم من قرار النيابة " بحفظ الأوراق اداريا " .

وكان النقاد في مصر قد فرغوا ـ منذ ثلاث سنوات ـ من نقد الطبعة الأولى ـ كما أسلفنا ـ حتى ان الأمير شكيب أرسلان وصف حديثه في نقد الكتاب في مقدمته لكتاب الغمراوي بقوله[2] " واني لأجدُه فُضولًا بعد أن جال في

(١) محمد أحمد الغمراوي ، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، المقدمة ص : نح .

(٢) ص :لب

هـذا الميـدان فحـول وفّـوا هـذا المـوضـوع حقّه ... " ودعا ذلك كلَهُ الغمراويّ نفسَه الى ما يشبه الاعتذار لأنه أصدر كتابه في نقد الدكتور طه حسين بعد ثلاث سنوات من صدور " في الشعر الجاهلي" وكان قد نشر بعض ما ورد من نقده في هذا الكتاب في الصحف سنة ١٩٢٦ نفسها ، فقال " فلم نسترح اذ ذاك الى نشر النقد كتاباً وقد طُوِيَ المنقود (يشير الى أن كتاب الدكتور طه حسين قد صودر ورفع من الأسواق) . لكنّ المنقود عـاد فـانبعث بعد أن غـيّر من زِيّـه وإنْ لم يغـيّر من حقيقتـه . فلم نجد بـدّاً من أن نعيد ذلك النقـد ونجعله بعد التعديل المناسب نواة لنقد أوسـع يـتـنـاسـب مـع الـتـضـخـم في الـكـتـاب المنقود ... " فحجّته إذن أنه يشمل بنقده الكتابَ بطبعتيه وبعنـوانيه . فمـا الذي جعل الشيـخ نديماً الملّاح يتصدى لنشر هذه الفصول في نقـد الكتـاب في طبعتـه الأولى بعـد ست سنـوات كاملة ، وقد انتهى النقاد قبله منذ زمن من هـذا النقد ؟

أحسب أن الشيخ نديماً رحمه الله تعالى انما أراد في مجلته أن يعرّف من لم يكن عارفاً من قرّائها في الأردن بهذا الكتاب الذي أثار ضجّة كبيرة حين

صدوره ، وأن ينبّه القرّاء الى ما في الكتاب من مآخذ . وأحسبه كذلك قصد الى أمر آخر لا يقلّ قيمةً عن هذا الأمر الأول ، وهو أن يبرز مشاركة أدباء الأردن في الحياة الأدبية الفكرية العربية مشاركة حيّة : بالتلقّي والعطاء ، وبالنقد والمناقشة . وكان رحمه الله حيّ النفس ، وثّاب الهمّة ، مشاركاً في جوانب الحياة الثقافية والعملية معاً .

وقد جاء نقده لكتاب " في الشعر الجاهلي " في تسع مقالات ، جعلها بعنوان " في الشعر الجاهلي في الميزان " ما عدا المقالة الأولى التي كان عنوانها " الدكتور طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي في الميزان " ، وفرّق هذه المقالات على أعداد السنة الأولى ، في كل عدد مقالة ، ما عدا العدد الخامس ، ثم توقفت المجلة بصدور العدد العاشر منها[١] .

وتناول في نقده الجوانب : الدينية ، والتاريخية ، والمنهجية ، واللغوية وخاصة اختلاف لهجات القبائل في الجاهلية ، والشعرية وخاصة اسلوب الشعر وألفاظه وعروضه وما

---

(١) عدد ذي الحجة سنة ١٣٥١ هـ الموافق لشهر نيسان سنة ١٩٣٣ م .

يحويه من معارف .وكل ذلك على غير وجهٍ مُتَّسق من تجميع أجزاء هذه الموضوعات أو من تتبعها في ترتيب صفحات الكتاب . فهو يفرّق الموضوع الواحد في مقالات متعددة ، وهو يختار من صفحات الكتاب ما يجعله أحيانا يعود الى صفحاتٍ تجاوزها في مقالة سابقة .

وبعض هذا النقد إضافةٌ جديدة الى ما كان قد أورده النقاد الذين سبقوا ممن ذكرنا ، ولكنّ بعضه مُعاد مكرّر ، وهو أمر طبيعي مردّه الى دوران جميع الناقدين حول أمور مشتركة في كتاب واحد ، فاختلفت الفاظهم ، وتباينت أساليبهم ، ثم اتفقوا - أو تقاربوا - في معانيهم وآرائهم . وليس المجال في هذه المقدمة الموجزة مجالَ ضرب الأمثلة على اختلافهم وائتلافهم ، أو اتفاقهم وافتراقهم ، ولا هو مجال المقابلة والموازنة بين آرائهم ومذاهبهم في النقد والردّ . وانما المقصود منها أن تكون مدخلا الى هذه المقالات تعرّف بها وبجّوها العام ، لا أن تكون نقداً للنقد ، ولا سبيلاً الى التفنيد أو التأييد . وعسى أن يقوم بذلك باحث يطّلع على هذه المقالات فتستهويه ، وتعود به الى ما سبقها من كتب وفصول ، وتقوده الى ما تَوقّفنا دونه في

هذه المقدمة حتى لا تطول فتَطْغَى على المقالات نفسها .

وقد رأينا من حقّ الموضوع علينا ، ومن تمام إعادة نشره ، ومن واجب الوفاء لصاحبه ، أن ندقق نصوصه : سواءٌ منها النصوصُ النثرية التي اقتبسها من كتاب الدكتور طه خاصةً ومن الكتب الأخرى عامة ، والنصوصُ الشعرية التي استشهد بها وأخذها من الدواوين والمجموعات الشعرية . فرجعنا الى ما رجع اليه ، واستكملنا الألفاظ التي في الأصول وسقطت من هذه المقالات ، وصححنا ما ورد محرَّفاً ، ومنه اغلاط المطبعة ، وضبطنا بالشكل والترقيم بعض ما يحتاج الى ضبط[1] تيسيراً على القارىء ، وتقريبا للكتاب الى الشُّداة وأوساط المتعلمين ، وهم الكثرة الكاثرة في أيامنا هذه وان ظنّوا في أنفسهم غير ذلك .

رحم الله الشيخ نديماً الملاح وأجزل له الثواب ، فقد أفرغ جهده ، وبذل وُسْعَه ، ومعه نفر من صَحْبِه من المعلمين والكتاب والشعراء ، أدركْنا أواخر عهدهم ، وتَلْمَذْنا لهم ، واستفدنا من دروسهم وكتاباتهم ، ثم سِرْنا زمناً على دربهم حتى سدّتْ أمامنا السبل وتقطّعت الأسباب . عاشوا في

(١) لم نشر الى شيء من ذلك في المتن ولا في الحواشي تخففا وتخفيفا

زمنٍ كان يُرْجَى غَدُه ، وها نحن أُولاء الآنَ في هذا الغَـدِ نتطلّع الى ذلك المـاضي ونتمنّى لو يعود . اللهمّ إنه شعور المرارة من الحاضر ، والتخبط من الألم في ديـاجيره المـدلهمّـة ، وليس اليـأسَ من المستقبل .. ليس اليأسَ من المستقبل (إنّه لا يَيْأسُ من رَوْحِ اللهِ إلّا القومُ الكافرون) .



(الدكتور طه حسين) وكتابه (في الشعر الجاهلي) في الميزان

منذ عهد قريب الف الدكتور طه حسين كتاباً في الشعر الجاهلي ، فثارت ضجة كبرى على ما فيه من الآراء الغريبة والطعن على القرآن . وقد رأينا ان نتابع في نقد اقواله دفاعاً عن الحق فانتقدنا منه في هذا العدد ما يأتي :

١ ـ قال المؤلف ، ادخل الله في قلبه نور القرآن ، في كتابه " في الشعر الجاهلي " [ص : ٢٨ - ٢٩] " وإذن فليس ما يمنع قريشا من ان تقبل هذه الأسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم« "

وقال في الصفحة (٢٩) : " أمر هذه القصّة إذن واضح . فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الاسلام ، واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ان لا يحفل بها عندما يريد ان يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى "

فالخبر القائل بأن الكعبة من تأسيس

اسماعيل وابراهيم عدَّه المؤلف أُسطورة (اي حديثاً مفترىً) فكذَّب بذلك التاريـخ والقرآن حيث يقول : واذ يرفــعُ إبراهيمُ القــواعدَ من البيتِ وإِسماعيلُ .

وهل يكون مكذِّبُ القرآن غيرَ مُلْحِد ؟ ..

وانه لمن العار الفاضح على رجل متفلسف كالدكتور ان يكذِّب خبراً تاريخياً مؤيداً بالقرآن من غير ان يثبت تكذيبه بآثــار ناطقــة أو نص تاريخي موثوق به .

٢ ـ وذكر المؤلف [ص : ١٤١ – ١٤٢] في معرض إنكاره شعر امرىء القيس ـ ملاحظة يهوِّل بها قائلاً " لا أدري كيف يتخلص منها أنصار القــديم وهي ان امــرأ القيس ـ إِن صحــت احاديث الرواة ـ يمني وشعره قرشي اللغة ... فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغــة أهل الحجاز ؟ "

ذكر الرواة ان امرأ القيس هو :ابن حجر بن عمرو الكندي ، وهو من أهل نجد ، وان الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد الذين نشأ هو بينهم وكان أبوه ملكاً عليهم ، وانه يمتُ بنسبــهِ الى اليمنيين ، والمعقول ان ينظم هذا الشاعر شعره بلغة

بني أسد العدنانية لأنه رَبِيَ بينهم ، لا أن ينظمه باللغة اليمنية التي لم يَرْبَ بين أهلها والتي هي تخالف اللغة الحجازية القرشية في لهجتها وكثير من الفاظها ، فماذا صنع الدكتور في ذلك ؟

كذَّب ببعض ما قاله الرواة ـ إذْ أنكر نشأة امرىء القيس في بني أسد ـ وآمن ببعض آخر منه ايماناً مشوّهاً ، فبدلاً من ان يقول : انه يمني الأصل ، أحبَّ أن يفهم (لهوى في نفسه) انه يمني النشأة والتربية ، ليتوسل بذلك الى تكذيب ما نسب اليه من الشعر بدعوى انه لم ينظمه بلغته اليمنية .

وكان المنطق يقضي على دكتورنا ان يصدّق بجميع ما ذكره الرواة في هذا الشأن او يكذّبه جميعه ان شاء التكذيب .

فأين الفلسفة يا دكتور ؟ وأين المنطق الصائب ؟

لقد وددنا لو أنه درس في الأزهر اكثر من ثماني سنوات ليتضلّع من مَعِين عِلْمَيِ المنطقِ والأصول ، ويَسْلَم من مثل هذا التناقض المنكر الغريب .

(في الشعر الجاهلي) في الميزان

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (٢٦) من كتابه " في الشعر الجاهلي " : " للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكنّ ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن اثبات هذه القصّة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها " إن الدكتور بعبارته هذه يصرّح بأن ما حدثنا به القرآن من وجود ابراهيم واسماعيل ، وهجرة الثاني الى مكة غير كافٍ لاثباتهما في الواقع . فهو على ذلك يشك في صدق القرآن ، والقرآن في نظره غير ثقة . وعندنا أنّ من يشكّ في صدق القرآن يكون كافراً ، أما النتيجة من هاتين المقدمتين فانا نتركها له ليستنتجها على مذهب استاذه ديكارت .

وان تعجب فعجب ان يستشهد الدكتور في كتابه احياناً باقوال الرواة ويكذّب القرآن أحياناً أخرى تبعاً لهواه وشهوته . وقال في الصفحة (٧٢) : " فلأمرٍ ما اقتنع الناس بان النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني

قُصَيّ ، وأن تكون قُصَيّ صفوة قريش ، وقريش صفوة مُضَر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية كلها " اورد الدكتور هـذه العبارة متهكماً بمن اقتنعوا ببعض مضمونها . وقد رُوي في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله اصطفى كِنانةَ مِن ولدِ اسمـاعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " وقال في حديث آخـر : "أنا سيـد ولد آدم ولا فخر "وأيَّـد هـذين الحديثين ولايةُ قريش وآل هاشم على بيت الله الحرام ، وما كان لهم من الأعمال المجيدة والمنزلة الرفيعة في نفوس العرب ، وما نزل على لسان النبي صلى لله عليه وسلم من شريعة مظهره ، وأدَّاه للبشر من الخِـدَمِ الجُلَّى . ولكن ماذا نعمل للدكتور ؟ إنـه لا يريـد أن يصدّق بذلك وما يدرينا أن نفسه لم تحدّثه بأنه أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، لِمَا أفاض علينا من الآراء الجوهرية (غير القشورية ...) ولما أحدثه من الانقلابات العظيمة ؟ ...

وقال في الصفحة (١١) : " أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقـائـق الأشيـاء في أول هـذا العصر الحـديث . والنـاس جميعـاً يعلمـون أن القـاعـدة

الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً "

وقال في الصفحة (٤٥) عن مذهب (ديكارت) : " ولا بد من ان نصطنعه في نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب في نقد آدابهم وتاريخهم ، ذلك لأن عقليتنا نفسها قد اخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية ، أو قل اقرب الى الغربية منها الى الشرقية . وهي كلما مضى عليها الزمن جدَّت في التغيّر وأسرعت في الاتصال بأهل الغرب "

يزعم الدكتور بعبارته الأولى أن مذهب الشك أو التجرّد للبحث مذهب جديد لم يكن معلوماً قبل ديكارت ، وأن ديكارت هو الذي استحدثه ، وهو لعمري زعم مردود ، ودعوى ليس عليها أثارة من علم . وكيف يكون جديداً مذهب عرفه فلاسفة اليونان ووضع أحدهم (ارسطو) علم المنطق من أجله وعرّفه بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتُها الذهنَ عن الخطأ في الفكر .

ونسج على منواله فلاسفتنا في علومهم النظرية ، كابن سينا وابن رشد والغزالي . وأوجب ابن خلدون في أول مقدمته أن يتجرد المؤرخ في أبحاثه

التاريخية ، ولا يكتفي بمجـرد النقل بـل يُعْنَى بعلم قواعد السياسة وطبائع الموجودات واختـلاف الأمم والزمـان والمكـان في الأخـلاق والعـوائـد والنحـل والمذاهب ، ويحيط بالحاضر من ذلك ويفرّق ما بينـه وبين الغائب من الاتفاق والاختلاف ، وأن يقوم على أصول الدين والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، ليستوعب أسبـاب الحوادث ، ويقف على أصول الاخبار ، فيعرض الخبر المنقـول على مـا عنده من هـذه الأصول ، ليعـرف صحيحه من مزيّفه .

وقـديماً قـالوا : الحُكْم عـلى الشيء فـرع من تصوره ، وقال تعالى : " ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمـع والبصر والفـؤاد كـلُّ أولئـك كـان عنـه مسؤولا " وقال : " قل : هذه سبيـلي أدعو إلى الله على بصيرة " أي بيّنة واضحة . ونعَى على المقلدين تقليدهم بقوله : وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءَنا أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ وقال : وما لهم به من علم إن يتّبعون إلّا الظنّ وإنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً وقال صلى الله عليه وسلم : " دَع ما يريبُك الى مالا يريبُك "

فمذهب التجرد في البحث وبنائه على البرهان

العلمي مذهب قديم وليس جديداً ، كما يدعي الدكتور ، ويظهر أن الذي حمله على دعواه هذه ثلاثة أمور ، الأول : كرهه للقديم ولو كان حسناً ، والثاني : حرصه دائماً على الظهور بمظهر المجدّد المبتكر ، والثالث : تغاليه في تقليد الغربيين وشغفه الزائد بكل ما يصدر عنهم . ولأمرٍ ما طلّق التشيّخ ، ونزع العمامة ، وسكن إلى العروس الافرنسية ..

(في الشعر الجاهلي) في الميزان

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (١٨) من كتابه " في الشعر الجاهلي ": " فأما هذا الذي يضاف الى الجاهليين فيُظْهِر لنا حياةً غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ، والا فأين تجد شيئاً من هذا في شعر امرىء القيس أو طرفة او عنترة ؟ أوَ ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؟"

وقال في الصفحة (٢٠) : أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثّلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا لم يكونوا جهالاً ولا أغبياء ولا غلاظاً ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة " .

وقال في الصفحة (٢١) : " فالقرآن إذن يمثّل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة ، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة او امتياز "

قبل أن نردّ على الدكتور فيما يتعلق بجوهر البحث نشير إلى ركاكة عباراته وتناقضها . ففي العبارة الأولى يصف الحياة التي يُظهرِها الشعر الجاهلي بأنها بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني . وواضح أن " أو " العاطفة تفيد التشكيك ، وهو إن قَصَد بقوله (كالبريئة) معنى (البريئة) كانت إحدى الكلمتين حشواً ينافي البلاغة . وإن قصد منها قلة الشعور الديني كان عندئذ شاكاً في كون الشعر الجاهلي مظهراً لحياة بريئة من الشعور الديني أو لحياةٍ يقلّ فيها ذلك الشعور ، وشكّه هذا يستلزم جهله بحقيقة الشعر الجاهلي .

وفي العبارة الثانية ينفي عن الجاهليين الجهل والغباوة والغلظة والخشونة ، وفي الثالثة يذهب إلى أنهم طبقتان : إحداهما مستنيرة والأخرى غير مستنيرة . وكانت البلاغة تقضي بأن يُعْرِب عن نفسه في العبارة الثانية بتقسيمه العرب إلى هاتين الطبقتين من غير إبهام وتطويل أقلّ ما يقال فيهما : إن الدكتور رجل عيّ لمّا يحذق الأساليب البليغة . ونرجع الى جوهر البحث فنقول :

ادَّعى الدكتور أن الشعر الجاهلي منحول ، نُحِلَه الجاهليون وهو ليس منهم في شيء . واستدلّ على ذلك في عبارتيه الأولى والثانية بدليلين ، الدليل الأول :

أن الشعر الجاهلي يمثل لنا الجاهليين جُهّالاً أغبياء غلاظاً على خلاف ما اتصفوا به من العلم والذكاء والرقة . والدليل الثاني : عجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين. ونرد عليه بما يأتي :

زعم الدكتور أن الشعر الجاهلي مثال الجهل والغباوة والغلظة ، وزَعْمهُ هذا جعلني أعتقد بأنه لم يستطع أن يَدْرُس الأدب العربي جيداً لانصرافه عنه إلى الأدب الافرنسي ، وإلا فأين هو من غزل امرىء القيس في معلقته :

أفاطمُ ! مهلاً بعضَ هذا التدلّلِ
وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأَجْمِلي
أغرَّكِ مني أنّ حُبَّكِ قاتلي
وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ
وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي
بِسَهمَيْكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتَّلِ
فانْ كنتِ قد ساءتكِ مِني خليقةٌ
فَسُلِّي ثيابي عن ثيابكِ تَنْسُلِ
نسلّتْ عَمَاياتُ الرجالِ عنِ الهوَى
وليس فؤادي عن هواكِ بِمُنْسَلِ

وقوله من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمر بن

قميئة الى قيصر :

إذا قلتُ هـذا صـاحبٌ قـد رَضِيتُـهُ
وقَـرَّتْ بـه العـيـنـانِ بُـدِّلْتُ آخـرَا

كـذلكَ جَـدِّي لا أصـاحبُ صـاحبـاً
مـن النـاس إلا خـانـنـي وتـغـيَّـرا

تـذكّـرتُ أهـلي الصـالحـين وقـد أتت
عـلى خَمَلَى خُـوْصُ الركاب وأوْجَـرا

ولـمَّـا بَـدَتْ حَـوْرانُ والآلُ دُونَـهـا
نَـظَرْتَ فلمْ تَنْـظُرْ بعيـنيـكَ مَـنْـظَرا

تقـطَّعَ أسبـابُ اللُّبـانـات والهـوى
عَـشِيَّـةَ جـاوزْنـا حَـمـاةَ وَشيْـزرا

بكى صـاحبي لمـا رأى الدرب دونـه
وأيـقـن أنـا لاحـقـان بـقـيـصـرا

فـقلتُ له : لا تـبـكِ عـيـنُـكَ إنـمـا
نـحـاولُ مُلْكـاً أو نـمـوتَ فنُـعـذَرا

وقول النابغة الذبياني حين أرعشه الكِبر وسئم الحياة :

المـرءُ يـأمُـلُ أن يـعـيش
وطول عـيش قـد يـضـرُّهْ

تَفْنَى بشاشتُه ويَبْقَى
بعد حُلوِ العيشِ مُرُّهْ
وتخونُه الأيام حتى
لا يرى شيئاً يَسُرُّهْ
كم شامتٍ بي إن هلكت
وقائلٍ لله دَرُّهْ

وقول زهير بن أبي سُلمَى في الفلسفة الاجتماعية من معلقته :

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ
ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يَسْأمِ
رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ من تُصِبْ
تُمِتْهُ ، ومَنْ تخطِىءْ يُعمَّرْ فيَهْرَمِ
ومَنْ لم يُصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ
يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمنسِمِ

ألى آخر أبياتها المشهورة .
وقول طَرَفة بن العبد في فلسفة البخل والموت من معلقته :

أرى قبر نَحَّامٍ بخيلٍ بمالهِ
كقبرِ غَويٍّ في البَطالةِ مُفْسِدِ

أرى المـوتَ يَعْتَـامُ الكـرام ويصـطفي
عَـقِيـلةَ مـالِ الفـاحشِ المـتـشـدّدِ
أرى العيشَ كنـزاً نـاقصـاً كـلَّ ليلةٍ
ومـا تَنْقُصِ الأيـامُ والدهـرُ يَـنْفَـدِ
لَعَمْـرُكَ إنَّ المـوتَ مـا أخـطأ الفتى
لَكَـالطِّوَلِ المُـرْخَى وثِنْـيـاهُ بـاليـدِ
متى مـا يَشـأْ يـومـاً يَقُـدْهُ لِحَتْفِـهِ
ومَـنْ يَـكُ في حبـل المـنيـةِ يَـنْـقَـدِ

وقول عنترة من معلقته :

ولقـد شـربتُ من المُـدَامـةِ ، بعـدمـا
رَكَـدَ الهـواجِـرُ ، بـالمَشُـوفِ المُعْلَمِ
فـاذا سـكِـرتُ فـانني مـسـتـهـلكٌ
مـالي وعِـرضي وافـرٌ لم يُـكْـلَمِ
واذا صـحـوتُ فـلا أقصِّرُ عن نـدىً
وكـمـا علمـتِ شمـائـلي وتـكـرّمـي

وقـولـه :
نُبِّئْتُ عَـمْـراً غـيرَ شـاكـرِ نعـمـتـي
والكُـفْـرُ مَخْـبـثـةٌ لِنـفسِ المُـنْـعِـمِ

وقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

ونشــربُ ، إنْ وردْنــا المــاءَ ، صَفْــواً
ويــشــربُ غــيــرُنــا كَــدَراً وَطِيــنــا
إذا مــا المَلْكُ ســامَ النــاسَ خَسْــفــاً
أَبَــيْــنــا أن نُــقِــرَّ الذلَّ فــيــنــا
لنــا الدنــيــا ومــن أمسى عــليــهــا
ونــبــطِشُ حــين نــبــطش قــادريــنــا
إذا بــلــغ الفِــطامَ لنــا صــبــيٌّ
تَــخِــرُّ له الجــبــابــر ســاجــديــنــا

وقول الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُري :

أيــهــا النــاطقُ المــرقِّشُ عَــنَّــا
عــنــد عمــروٍ ، وهــل لذاكَ بَــقــاءُ ؟
لا تَــخَــلْنــا عــلى غَــرَاتِــكَ ، إنَّــا
قَــبــلُ مــا قــد وشَى بــنــا الاعــداءُ
١ وقال لبِيد بن ربيعة العامري من معلقته :

وجَــلَا السُّيــولُ عن الطُّلولِ كــأنّهــا
زُبُــرٌ تُجِــدُّ مُتــونَهــا أقــلامُهــا[١]

وقولـــه :

صــادفْــنَ منــهــا غِــرَّةً فــأصَبْــنَهــا
إنَّ المــنــايــا لا تَــطِيش سِــهــامُــهــا

وقولـــة :

أوَ لَمْ تَكُنْ تَــدري (نَــوَارُ) بــأنــني
وصَّــال عَقْــدِ حبــائــلٍ ، جَــذَّامُهــا ؟
تَــرَّاكُ أَمْــكِـنــةٍ إذا لم أرْضَــهــا
أو يَعْتَلِقْ بعضَ النفــوسِ حِمــامُــهــا

وقولــه :

إنــا إذا التـقَتِ المـجــامـعُ لم يَــزَلْ
مِــنَّــا لِزَارُ عــظيمــةٍ جَــشّــامُــهــا
ومُــقَسِّــمٌ يُعْــطي العــشيــرةَ حَــقَّهــا
ومُــغَــذْمِــرٌ لِحقــوقــهــا هَضَّــامُــهــا
مِــنْ مَــعْشَرٍ سَــنَّــتْ لهــمْ آبــاؤهــم
ولكــلِّ قــومٍ سُــنَّــةٌ وإمــامُــهــا
لا يَــطْبَــعُــونَ ولا يَــبُــورُ فَــعَــالُهــمْ
إذْ لا تَمِيــلُ مــعَ الهــوى أحــلامُهــا
فــاقْنَــعْ بمــا قَــسَمَ المليــكُ فــانمــا
قَــسَمَ الخــلائــقَ بيــنــنــا عَــلَّامُــهــا
وإذا الامــانــةُ قُــسِّــمــتْ في مَــعْشَرٍ
أوفَى بــأوفــرِ حَــظِّنــا قَــسَّــامُــهــا
فــبنــى لنــا بيــتــاً رفيــعــاً سَــمْكُــهُ
فَــسَــمــا إليــه كــهلُهــا وغُــلامُــهــا

ولولا ضيق المقام لملأنا على الدكتور كتباً بأمثال هذا الشعر الذي هو خير مثال للعلم بفلسفة الحياة وللذكاء والرقة .

وقد يعترض علينا الدكتور ببعض ألفاظ غريبة وردت في المعلقات وغيرها من الشعر الجاهلي ، وبتجهّم المعاني في مثل معلقة أمرىء القيس ، وبتعاظل التراكيب في مثل معلقة طَرَفة بن العبد . ونجيب عن غرابة الألفاظ بأن ما نراه غريباً منها قد كان مألوفا وقت نظمها ، ونجيب عن تجهّم المعاني وتعاظل التراكيب بأن الأمة وشعراءها ، كما اعترف هو ، طبقات في الاستنارة وعدمها ، حتى إن أي شاعر ليختلف بعض شعره عن بعض بلاغةً ومتانة تركيبٍ وعلوَّ اسلوب .

وزعم الدكتور أن الشعر الجاهلي كله قد عجز عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين . وإليك طائفة من الشعر الجاهلي الذي يصوّرها كما وردت في كتاب " الأصنام " لابن الكلبي :

اللات : صَنم بالطائف ، وهو صخرة مربعة بَنتْ عليها ثقيف بناء قال فيها عمرو بن جُعَيْد :

فـانّي وتَـرْكي وَصْـلَ كـأسٍ لَكـالذي
تَـبـرّأَ مِنْ (لاتٍ) وكـان يَـدِيـنُهـا

وقال المتلمس في هجائه عمرو بن المنذر :

أَطْرَدْتَـــنـــي حَــذَرَ الهــجــاءِ ، ولا
و (اللات) والأنـــصـــابِ لا تَئِــلُ[1]

و (العْــزَّى) صنم بوادٍ من نَخْلةَ الشـآميــة ، وسَدَنَتُها بنو مُرَّة ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانت تطوف الكعبة وتقول :

واللاتِ والعُزَّى ومَنـاةَ الثالثةِ الأُخـرَى فانهنَّ الغَرانيقُ[2] العُلاَ
وإنَّ شفاعتهنّ لَتُرْتجَى

وقال أوس بن حجر يحلف :

وبــاللّاتِ والعُــزَّى ومَــنْ دان دينــهــا
وبــاللهِ ، إنّ اللهَ مــنـــهـــنَّ أكــبــرُ

وقال زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وكان قد تألّه في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تــرَكْــتُ اللّاتَ والعُــزَّى جــمــيــعــاً
كــذلكَ يــفــعــل الجَــلْدُ الصَّــبــورُ

---

(١) لا تئل : لا تنجو من هجائي (٢) الغرانيق : جمع غرانق وهو طائر مائي يشبه الكركي ويطلق على الشاب الجميل وعلى الصورة كما هنا

فـلا العُـزَّى أَدِيـنُ ولا ابـنَـتـيْـهـا
ولا صَـنَـمَـيْ بـنـي غَـنْـمٍ أزُورُ
ولا هُـبَـلًا أزورُ وكـان ربّـاً
لنـا في الدهـرِ إذْ حِـلْمـي صـغـيرُ

وكان لها مَنْحَرٌ ينحرون فيه هداياها ، يسمَّى الغَبْغَب ، وله يقول الهُذَليّ وهو يهجو رجلًا تزوج امرأة جميلة يقال لها أسماء :

لقـد أُنكِحَـتْ أسمـاءُ لَحْـيَ بُقَـيْـرةٍ
من الأُدْمِ أهداها امروٌ مِنْ بني غنْمِ [١]
رأى قَـدَعـاً [٢] في عينهـا إذْ يسـوقُهـا
إلى غَبْغَبِ العُـزّى ، فوضَّـعَ في القَسْمِ

و (مَناة) كانت صنمـاً لهُذَيْـل وخُزَاعـة . قال عبدالعُزَّى بن وديعة المزني :

انـي حـلفـت يـمـين صـدق بـرّة
بـمـنـاة عـنـد مـحـل آل الخـزرج

وقال تعالى فيها : أفرأيتُم اللّاتَ والعُزَّى ومَناةَ

---

(١) اللحي : عظم الحنك او منيت اللحية ، والادم : السمر ، جمع آدم وأدماء (٢) القدع : ضعف العين من طول النطر.

الثالثةَ الأخرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأنثى ؟ لانهم كانوا يقولون : إن هذه الأصنام بناتُ الله يشفعن إليه.

و (إساف ونائلة) كانت العرب تعتقد أنهما فجَرا ، فمُسِخا حجرين ، ووُضِعا عند الكعبة ليتَّعظ بهما الناس . فلما طال مُكْثُهما وعُبِدت الأصنام عُبِدا معها . وكانت قريش تنحر وتذبح عندهما . وحين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي (عليه السلام) قال أبو طالب حالفاً بهما :

أحضرْتُ عند البيتِ رَهْطي ومعشري
وأمسكتُ من أثوابه بالوصائلِ[1]
وحيثُ يُنيخُ الأشعرونَ رِكابَهمْ
بِمُفْضَى السيول من (إسافٍ) و (نائل)

ولاساف يقول بِشْر بن أبي خازم الأسَدي :

عليه الطيرُ ما يَدْنون منه
مقاماتِ العوارِك[2] من (إساف)

و (ذو الخَلَصة) صنم كان مَرْوةً بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج ، وكانت بِتَبالةَ بين مكة واليمن .

---

(١) الوصائل : الثياب المخططة اليمانية جمع وصيلة» .
(٢) : العوارك : جمع عاركة من عركت الماشية النبات اذا اكلته كله .

وفيهـا يقول خِـداش بن زُهَير العـامري لِعَشْعثِ بن وَحْشِيٍ الخَثْعمَي في عهدٍ كان بينهم فغدر بهم :

وذكّـرْتـهُ بـاللهِ بـيـنـي وبـيـنـه
وما بـيـنـنـا مـن مُـدّةٍ لو تـذكـرًا
وبـالمـروةِ البـيـضـاء يـومَ تَـبـالةٍ
ومَحْبسَـةِ النُّعـمـان حـين تنصَّـرا

و (سَعْدٌ) صنم كان لمالكٍ ومِلْكان ابني كِنـانة بساحل جُدَّة ، وهو صخرة طويلة رُوي أنه أقبل رجل منهم بابلٍ لِيقِفَها عليه تبرّكاً بها ، فنفرت منه وتفرقت عليه ، فتناول حجراً ورماه به وقال :

أتـينـا الى سـعـدٍ ليجـمـعَ شَمْـلنَـا
فشتَّتنـا سعـدٌ فـلا نحن من سعـدِ
وهـل سعـدُ إلَّا صخـرةٌ بِتَنُـوفـةٍ[1]
من الأرض لا يُـدْعَى لِغَيٍّ ولا رُشْـدِ

وكان أعظمَ هذه الاصنام هُبَلُ ، وكان في جوف الكعبة ، ولما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، دخل المسجد ، والأصنام منصوبة حول

---

(١) التنوفة : المفازة او الأرض الواسعة .

الكعبة ، فجعل يطعن بِسِيَةِ قوسه في عيونها ووجوهها ويقول : جاء الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زَهُوقاً ثم أمر بها فكُفِئَتْ على وجوهها ، ثم أُخرجت من المسجد ، فحرقت كما امر بهدم اللات والعزي ومناة وغيرها وفي ذلك قال راشد بن عبدالله السُلَميّ :

قالت: هَلُمَّ إلى الحديثِ، فقلتُ: لا
يَأْبَى الآلَهُ عليكِ والاسلامُ
أوَ ما رأيتِ محمداً وقَبيلَهُ
بالفَتْحِ ، حِينَ تُكَسَّرُ الاصنامُ
لَرأيتِ نُورَ اللهِ أضحَى ساطعاً
والشِّرْكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الاظلامُ

و (الأُقيصِر) صنم في مشارف الشام لقُضَاعَةَ ولَخْمٍ وجُذَام وعاملة وغَطَفان . وله يقول ربيع بن ضَبُعٍ الفَزَاريّ :

فانني والذي نَغْمُ الأنام له
حَوْلَ (الأقيصِر) تسبيحٌ وتَهْليلُ

و (نُهْم) صنم لمُزَينة ، وكان سادِنَه خُزاعيُّ بن عبدِ نُهْم ، سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فثار إلى

الصنم وكسره ، وأنشأ يقول :

ذهبتُ إلى (نُهْمٍ) لأذبحَ عندَهُ
عَتِيرةً[1] نُسْكٍ كالذي كنت أفعلُ
فقلتُ لنفسي حين راجعتُ عَقْلَها
أهذا إِلَهٌ أيُّكمْ ليس يَعْقِلُ ؟
أَبَيْتُ فدِيني اليومَ دينُ محمدٍ
إِلَهُ السماءِ الماجدُ المتفضلُ

ولهذا الصنم يقول أُميّمة بن الأسْكَر :

إذا لَقِيتَ رَاعِيَيْنِ في غَنَمْ
أَسَيِّدَيْنِ يَحْلِفانِ بِنُهُمْ
بينهما أشْلاءُ لحمٍ مُقْتَسَمْ
فَامْضِ ، ولا يأخذْكَ باللحمِ القَرَمْ[2]

و (سُعَير) صنم لقبيلة عَنَزة ، خرج جعفر بن أبي خلاسٍ الكلبي على ناقته ، وقد عَتَرتْ عَنَزةُ عنده ، فنفرت ناقته منه ، فأنشأ يقول :

---

(١) العتيرة : شاة كان العرب يذبحونها لآلهتهم في شهر رجب .
(٢) القرم : شدة شهوة اللحم .

نفــرَتْ قَلُوصي من عَتــائــرَ صُــرِّعــتْ
حَــوْلَ السُّعَــيرِ تَــزورهُ أبْنــا يَقْــدُمِ
وجُمــوعُ يَــذْكُــرَ مُهْطِعــينَ جَنَــابَــهُ
مــا إنْ يُــحــيرُ إليــهــم بِــتَــكَــلُّمِ

وبعد ، فهذا قليل من كثير ضربناه مثلاً . ومن شاء الزيادة فليرجع إلى كتب اللغة . ولعل الدكتور قائل : لماذا لم نجد شيئاً من هذا في المعلقات ؟ فنقول له : غير خافٍ على فلسفتكم أن أصحاب الملعقات من الطبقة المستنيرة التي تكسد لديها بضاعة الأصنام ، فهي إذا حلفت فانما تحلف بالله أو ببيته الحرام ، كقول زهير :

فــاقسمتُ بــالبيتِ الذي طافَ حــولَهُ
رِجــالٌ بَــنَــوْهُ من قُــريشٍ وجُــرْهِــمُ

وقول النابغــة :

فــلا لَعَمْــرُ الذي قــد زُرْتُــهُ حِجَجــاً
ومــا هُرِيقَ عــلى الانصاب من جَسَــدِ[1]
والمــؤمنِ العــائــذاتِ الطيرَ يَمْسَحُهــا
رُكبــانُ مكّــةَ بــينَ الغِــيلِ والسَّنَــدِ

---

(١) الجسد هنا : الدم

واذا كانت استنارة الدكتور وذكاؤه قد جَرّآه على إنكار ما ثبت في القرآن من الحوادث التاريخية فأحْرٍ بشعراء الجاهلية المستنيرين أن يتنزهوا عن الأيمان بالأصنام التي لا تعقل ، او الحلف بها . وجدير بأصحاب المعلقات منهم أن لا يجعلوها من موضوعهم في قصائد نظموها تخليداً لذكرهم وتباهياً بمجدهم ومآثرهم . ومهما يكن من ذلك فان ما روي من الشعر الجاهلي الذي يصور الحياة الدينية هو كغيره من الشعر قد ضاع أكثره لسببين ، الأول : عدم كتابته وتدوينه لغلبة الأمية على الجاهليين ، والثاني : محاربة الاسلام للوثنية ونهيه عن رواية الشعر فيها .

(في الشعر الجاهلي) في الميزان

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (٢٩) :
" وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جُرْهُم ، كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غَناء فيه "

نحن على رأي الدكتور في انكاره أن يكون جميع العرب المُسمَّيْن بالمستعربة من نسل رجل واحد وهو اسماعيل عليه السلام ، كما ذكر بعض المؤرخين ، لأنه ليس من المعقول أن يعقم أبناء جُرْهُم جميعهم ، بيد أننا لا نقرّه على انكاره تعلم اسماعيل العربية من جرهم ، لأن من يصاهر قوماً ويقيم بينهم يبعد أن لا يتعلم وشيكاً لغتهم.

وقال الدكتور في الصفحة نفسها " والنتيجة لهذا البحث كله تردّنا الى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثّل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحاً . ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون اليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي قوماً ينتسبون الى عرب اليمن ، الى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن ، والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء ، إن لغتها مخالفة للغة العرب ، والتي

أثبت البحث الحديث أن لها لغة اخرى غير اللغة العربية ".

ولنا على عبارة الدكتور هذه مآخذ ثلاثة ، الأول : أن قوله : " وهو أن هذا الشعر " إلى قوله : " عرب اليمن" جملة ركيكة مخنثة وبعيدة عن البلاغة بعد قائلها عن التصديق بأخبار قرآنه . وقد أصاب المحزُّ لو قال : " وهو أن هذا الشعر المسمَّى بالجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء المضاف اليهم شيء كثير منه قوماً ينتسبون الى عرب اليمن ".

الثاني : زعمه أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول عن القحطانية : إن لغتها مخالفة للغة العرب ، واستنتاجه من ذلك أن للقحطانية لغة أخرى غير اللغة العربية ، زعماً لَعَمْرُ أبيك ليس بمزْعَم ، واستنتاجاً لم تُراعَ الامانة في رواية مقدماته . ذلك بأن أبا عمرو بن العلاء قال في كتاب الطبقات للجمحي : " ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا " فقول أبي عمرو : ولا عربيتهم بعربيتنا ، صريح بأن لغة حِمْيَر هي العربية ، وإن كانت تخالف لغتنا في بعض المفردات وشيء من الاعراب ، فهل من المنطق أن يستنتج من هذه العبارة أن اللغة القحطانية غير اللغة العربية ؟ قال ابن جِنّي في كتاب

" الخصائص " عن اللغة القحطانية : "إنها لغة عربية قديمة " وسمّى الاختلاف الذي بينها وبين العدنانية بعداً ، ولم يقل أحد من الرواة أن اللغة القحطانية غير عربية ، وأن القحطانيين غير عرب.

الثالث : قوله إن في الجاهلية شعراء قحطانيين نُسِب اليهم شعر منظوم بغير لغتهم القحطانية ، واستنتاجه من هذه المقدمة أن الشعر المسمَّى بالجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ، ولا يكون صحيحاً .

وهو استنتاج غريب جدّاً نردّه من جهتين ، الأولى : أن طائفة الشعر المنسوبة الى الشعراء القحطانيين إذا دلّ نظمها باللغة العدنانية على كذب نسبتها اليهم ـ كما يزعم ـ فلا يلزم عن ذلك أن تكون طائفة الشعر الاخرى العدنانية مكذوبة على الشعراء العدنانيين الجاهليين .

الجهة الثانية : أن ورود شعر الشعراء القحطانيين باللغة القرشية لا يلزم عنه أن يكون مكذوباً عليهم ، لأن اللغتين العدنانية والقحطانية وإن اختلفتا في شيء من الألفاظ والاعراب ، فلم تكن إحداهما بمعزِل عن الأخرى . وبيان ذلك أن القحطانيين جَلَوْا عن ديارهم بعد سيل العَرِم عام ٤٤٧ م وتفرقوا في شمال الجزيرةواخضعوا العدنانيين لسلطانهم في الشام والعراق ، كما

أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن . فكان بين الفريقين اتصال سياسي وتجاري ، وكانت رحلة الشتاء والصيف وظل هذا الاتصال يقرّب بين لغتيهما ، ويجانس بين لهجاتهما حتى القرن السادس للميلاد حين اخذت دولة الحميريين تدول بتغلب الاحباش والفرس على اليمن ، وأخذت لغتهم وآدابهم تندثر ، وتهيأ للعدنانيين أسباب النهضة والالفة بفضل الأسواق والحج واختلاطهم بالروم والحبشة . فسادت لغتهم القرشية سائر اللغات العربية ، وأصبحت لغةَ الشعر والأدب والتجارة ، ولغة المفاخرة والمنافرة ، في سوق عُكَاظ التي كان النابغة الذُّبياني أحد المحكّمين فيها . ولأمر ما كتب أصحاب المعلقات مُذهَّباتهم بماء الذهب على القَباطِيّ وعلّقوها بالكعبة . فهل يَعْجَب الدكتور بعد ذلك من غَلَبة اللغة القرشية على غيرها في أشعار الجاهليين النابهين ؟

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ
إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

(في الشعر الجاهلي) في الميزان

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (٣٣) " تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة ، أو تباعداً في اللغة ، أو تبايناً في الكلام . البحر العَروضيّ هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة في معانيها كما نجدها عند شعراء المسلمين".

وقال فيها أيضاً : " كل شيء في هذه المُطوَّلات يدلّ على ان اختلاف القبائل لم يؤثّر في شعر الشعراء تأثيراً ما ، فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حُمل عليها حملاً بعد الاسلام . ونحن الى الثانية أمْيل منا إلى الأولى . فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس الى عدنان وقحطان ، يعترف القدماء أنفسهم بذلك كما رأيت أبا عمرو بن العلاء ، ويثبته البحث الحديث ".

يزعم الدكتور في هذه العبارات أن من أصحاب

المعلَّقات والمطوَّلات شعراء قحاطنيين . وهو زعم مردود يخالفه الواقع ، لأن النابغة ذُبيانيٌّ وزهيراً مُـزنيٌّ الأصل غَطَفاني المنشأ ، والأعشى قَيْسيّ ، وعنترة عَبْسيّ ، وطَرَفة بَكْرِيّ ، وعمرو بن كُلْثوم تَغْلَبي ، والحارث بن حِلِّزة يَشْكُرِيّ بَكْرِيّ ، ولبيداً عامري . والرواة مجمعون على أن قبائل ذبيان ومُزَيْنة وغَطَفان وقيس وعَبْس وبَكْر وتَغْلِب ويَشْكُر وعامر جميعها عدنانية . أما امرؤ القيس فهو ـ وإن كان كِنْديَّ الأصل ، وكِنْدة قبيلة قحطانية ـ فانه كما ذكرنا سابقاً نشأ في بني أسد إحدى القبائل العدنانية ، فهو لذلك عدناني النشأة واللهجة . وكنا نتمنى للدكتور أن لا يعجل بحكمه قبل أن يدرس تاريخ القبائل وأنسابها ، لأنه من العيب الفاضح أن يقع في مثل غلطه رجلٌ يَعُدّ نفسه مرجعاً لتاريخ الأدب العربي .

ويدّعي الدكتور أنه ليس بين المطوّلات والمعلّقات السبع اختلاف في اللهجة . ونجيبه بأن أصحاب هذه المطولات والمعقات قد نظموها إبّان نهضة اللغة العدنانية وسيادة اللغة الحجازية منها على أخواتها . وإذا ذكرنا أن امرأ القيس وطَرَفة وعمرو بن كُلْثوم وعنترة والحارث بن حِلِّزة هم من شعراء القرن السادس للميلاد ، وهو القرن الذي وُلِد في أواخره النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن النابغة الذبياني مات

قبل الهجرة بثماني عشرة سنة ، وزهيراً مات قبلها باحدى عشرة سنة ، والأعشى مات قُبَيْل البعثة ، ولبيداً مات في خلافة معاوية ، وذكرنا أيضاً أن القرن السادس كان عصر سيادة الأحباش على أهل اليمن القحطانيين وعصر سيادة اللغة الحجازية وتمثّل اللغات العدنانية بها ،وأن عكاظ (قرية بين نخلة والطائف) قد اتُّخِذتْ سوقاً سنة (٥٤٠) للميلاد ، أي في منتصف القرن السادس ، وأن هذه المعلقات السبع قد تأنق أصحابها في نظمها ليعلّقوها في الكعبة ، مهد اللغة الحجازية ، إذا ذكرنا ذلك كله ، وحكمّنا العقل والمنطق ، لم نَعْجَب إذا رأينا اللهجة الحجازية غالبة فيها على غيرها .

وهل ينتظر الدكتور من امرىء القيس أن يستعمل في معلقته كشكشة[1] أسد ، فيقول مثلا (فمثلِشِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع) بدلًا من قوله : (فمثلِك الخ) ؟ ومن طَرَفة بن العبد والحارث بن حِلِّزة أن يستعملا في معلقتيهما كسكسة[2] بكر ؟ وكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة قد نظم مطولته ليعلقها في الكعبةَ مَحطّ آمال العرب ، ومهوى أفئدتهم ، وموطن

---

(١) الكشكشة : جعل الكاف شيناً في خطاب المؤنث فيقولون في عليكِ : عليش . (٢) والكسكسة : جعل الكاف سيناً في خطاب المؤنث فيقولون في عليكِ : عليس .

سيادة اللغة الحجازية التي نفت عن نفسها لهجات القبائل المَعِيبة ، مثل كشكشة أسد ، وكسكسة بكر ، وطُمْطَمانية[١] حِمْيروعَجْعَجة[٢] قُضَاعـة ، وفحفحة[٣] هُذَيْل ، وعنعنة[٤] تَمِيم ، وقطعة[٥] طَيء ، ولم تقبل من لهجات غيرها الا ما كان فصيحا ، كالامالة لغة عامّة نجد من تَميم وأسد وقيس ، وكادغام المجزوم في لغة تميم . ولهذا جازت الامالة في قوله تعالى : ا يحيى ! على لغة تميم، والفتح على لغة الحجاز ، وجاز الادغام في قوله تعالى : مَنْ يُشاقَّ الله وقوله : مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه على لغة تميم ، وجاز الفَكّ في قوله : ومن يُشَـاقِقِ الرسـول وقـوله : وَلْيُمْلِلْ . يُحْبِبْكُمُ الله . يُمْدِدْكُمْ. واشْدُدْ به أزْري على لغة الحجاز. وما الى ذلك من هَمْزٍ وتَسهيل وقَصْر ومَدٍّ وتصحيح وإعـلال وإبدال . وما أدراك يا دكتور أن امرأ القيس كان لا يلفـظ كلمة " ذِكْـرَىً ، ممالة حـين قراءتـه مـطلع معلقته ؟

---

(١) الطمطمانية : جعل ام بدل ال كقوله : ليس من امبر امصيام في امسفر (٢) والعجعجة : قلب الياء جيما بعد العين وبعد الياء المشددة فيقولون : خرج الراعج معج اأي خرج الراعي معي . (٣) والفحفحة : جعل الحاء عيناً فيقولون : العسن أخـو العسين اي الحسن أخـو الحسين . (٤) والعنعنة : ابدال العين من الهمزة فيقولون في أمان : عمان . (٥) القطعة : حذف آخر الكلمة فيقولون : يا أبا الحس أي يا ابا الحسن .

ويعتقد الدكتور أن اختلاف القبائل لم يؤثّر في شعر الشعراء تأثيراً ما ، وإنه لاعتقاد غريب نشأ من ضعف خبرته بما في الشعر الجاهلي من الألفاظ المترادفة والمشتركة والمتضادّة ، الناشئة من اختلاف القبائل ولغاتها . ألا يرى أن امرأ القيس قد استعمل في معلقته كلمة " الذئب " حيث يقول : " به الذئبُ يعوِي كالخليعِ المعيَّلِ " واستعمل مُرادِفها " السرحان " بمعنى الذئب في قوله : (وإَرخاءُ سرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ) وأنه استعمل كلمة " السَّجَنْجَل " بمعنى المرآة في قوله : "ترائبها مصقولة كالسجنجل " وسمَّاها طَرَفة بن العبد " ماوية " في قوله : " وعينان كالماويتين استكنّتا " . وعبّر امرؤ القيس عن الهودج بالخِدْر في قوله : " ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزةٍ "والخِدْر لفظ مشترَك ، من معانيه : عَرِين الأسد . واستعمل امرؤ القس كلمة "تُسِرُّونَ " بمعنى "يُظْهِرونَ" في قوله :

تجاوزتُ أحراساً إليها ومَعْشراً
علَيَّ حِرصاً لو يُسِرُّون مَقْتَلي

وفعل " يُسِرُّون " من الأضداد ، ومعناه في اللغة الحجازية " يظهرون " ؟ وهل كانت الألفاظ

المترادفة والمشتركة والمتضادّة غير نتيجة من نتائج امتزاج اللغات العربية ، وانضمامها جملةً تحت لواء اللغة الحجازية ، لغة الأدب والدين والشعر والسياسة ؟

ويقول الدكتور في عبارته الأولى : (البحر العَروضيّ هو هو ، وقواعد القافية هي هي) وهو قول ظاهر الخطأ ، لأن معلقات امرىء القيس وطَرَفة وزهير من البحر الطويل ، ومعلقتي لَبَيد وعنترة من البحر الكامل ، ومعلقة عمرو بن كُلْثوم من البحر الوافر ، ومعلقة الحارث بن حِلِّزة من البحر الخفيف ، ومعلقة النابغة من البحر البسيط . فهل يكون البحر العروضي في معلقاتهم واحداً ؟ وهل تستوي قوافي المعلقات اللامية والدالية والميمية بأنواعها والنونية والهزمية والرائية ؟

لقد كان الأجدر بالدكتور أن ينفق قليلاً من وقته في دراسة علمي العروض والقوافي ، تفادياً من أن يسقط في هذا الغلط الفاحش . وقبيحٌ بالمرء أن يدَّعي أستاذية الأدب العربي وهو يجهل أبسط علومه وأقلَّها جهداً وعناء .

تتبع الخليل أوزان الشعر العربي فوجد أن أصولها خمسة عشر ، وسماها بحوراً . وهي الطويل والمديد والبسيط والكامل والوافر والرَّجَز والهَزَج

والرَّمل والخفيف والسريع والمنسرح والمضارع والمُجْتثّ والمُقْتضَب والمتقارِب ، وزاد عليها الأخْفش وزناً آخر سمَّوه المتدارك أو الخَبَب ، فالمجموع ستة عشر وزناً أو بحراً أصلية ، ولها فروع كالمجزوء والمشطور والمنهوك ، ويدخلها زِحَافات وعِلَل . وهذا الى ما ذكروه من أنواع القافية وحروفها وعيوبها ، مما يضيق عنه غير اللغة العربية . فاذا استبعد الدكتور أن تدور عليها أشعار القبائل الجاهلية ، فلْيأتِنا من بحر علومه المدفونة بأوزان أخرى نُظِم بها الشعرُ الجاهلي في عصر أصحاب المعلقات والمطولات !

ثم إن لأصحاب المعلّقات قصائدَ ومقطّعاتٍ من بحور مختلفة غير البحور التي نظموا منها معلّقاتهم ، فاذا اتَّفق أنّ أحدهم نظم معلقته من بحر المعلقة التي نظمها غيره ، فلا يلزم عن ذلك أن تكون جميع أشعارهما وأشعار معاصريهما مكذوبة . ولو لزم ذلك لجاز لمن يأتي بعدنا أن ينكروا نسبة أشعار شوقي وحافظ والرُّصافي إليهم ، لنظم كلٍّ منهم بعض قصائده من بحور الكامل والطويل والخفيف والبسيط والوافر مثلاً .

أمّا قول الدكتور في عبارته الأولى بأن ألفاظ المعلّقات السبع والمطوّلات مستعملة في معانيها كما هي عند الشعراء المسلمين ، والمذهب الشعري هو هو ،

فهو قول مُبْهَم ، كان يجدر به توضيحُه لتُمكنَ مناقشتُه فيه . ولكن هكذا دأبه ، يُبْهم القول ليظنّ القائل أن وراء جعجعتهِ طحْناً . والمعروف من تاريخنا أن الاسلام قد أدخل على لغة الجاهليين الفاظاً جديدة ، ونقل كثيراً من ألفاظهم عن معانيها الى معانٍ أخرى بينها وبين الأولى مناسبة ، أمثال : الصلاة والقيام والركوع والسجود والزكاة والصيام والحج والوضوء والجهاد والكفّارة والاسراء والمعراج والتراويح والمؤمن والكافر والخلافة والنبوّة والوحي ، وكلمات النحو والصرف والاشتقاق . ولا شيء من هذه الكلمات المستحدثة أمثالها موجود في المعلّقات . وعلى العكس من ذلك ، الكلمات ذات المعاني الجاهلية فانها كثيرة فيها كالبلية في قول لَبِيد

تأوِي إلى الأطنابِ كلُّ رَذِيَّةٍ
مِثْلِ البَلِيَّةِ[1] قالِصٍ أهدامُها

وكالخليع في قول امرىء القيس :

---

(١) البلية : الناقة التي كان الجاهليون يشدّونها على قبر صاحبها حتى تموت ، والجمع : البلايا . والأطناب : حبال البيت ، جمع طنب ، والرذية : الناقة التي ترذي في السفر ، أي تخلف لفرط هزالها وكلالها . والأهدام : أخلاق الثياب ، واحدها هدم . وقلوصها : قصرها يقول : تلوي الي اطناب بيتي كل مسكينة قصيرة الثياب البالية وشبهها بالبلية في قلة تصرفها وعجزها عن الكسب .

وَوادٍ كجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
به الذئبُ يَعْوي كالخَليع[1] المُعيلِ

وكالعَتِيرة المشار اليها في قول الحارث بن حِلِّزة :

عَنَناً باطلاً وظُلماً كما تُعْتَرُ[2]
عن حَجْرَةِ الرَّبيضِ الظِباءُ

وكخَزازي[3] في قول عمرو بن كلثوم :

ونحن غَداةَ أُوقِدَ في خَزازَى
رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرافدينا

---

(١) الخليع : هو الذي خلعه أهله لخبثه . كان الرجل الجاهلي يأتي بابنه الى الموسم ويقول : ألا إني قد خلعت ابني ، فإن جرّ لم أضمن ، وإن جرَّ عليه لم أطلب ، فلا يؤخذ بجرائره .

(٢) تعتر : من عتر عترا ، إذا ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كان الجاهليون يذبحونها للأصنام في رجب ، والعنن : الاعتراض ، والحجرة الناحية ، وقد كان الرجل اذا بلّغ الله غنمه مئة ذبح منها واحدة للاصنام ثم ربما ضنت نفسه بها فذبح الظبي مكان الشاة . يقول : الزمتمونا ذنب غيرنا كما يذبح الظبي لحق وجب في الغنم .

(٣) خزازي اسم جبل كانوا في الجاهلية يوقدون عليه نار الحرب . وهذا البيت يفتخر فيه عمرو بأعانته قومه بني نزار على اليمنيين حينما اوقدت الحرب بينهما في خزازي .

وكالقِدَاح[1] في قول عنترة :

رَبِذٍ يَداهُ بالقِداحِ إذا شتَا
هَتَّاكِ غاياتِ التِّجارِ مُلوَّمِ

ويقول زهير :

ومَنْ يَعْصِ أطرافَ الزِّجَاجِ فإنّهُ
يُطيعُ العَوالي رُكِّبتْ كُلَّ لَهْذَمِ

فان فيه ذكر عادة من عادات الجاهلية ، وهي أنهم كانوا إذا التقت فئتان منهم سدَّدت كل واحدة زِجاجَ الرماح نحو صاحبتها ، وسعى الساعون في الصلح ، فان أبتا الا التمادي في القتال قلبت كل واحدة منهما الرماح واقتتلنا بالأسنّة .

أضف الى ذلك ما في معلقة زهير من ذكر الحرب التي نشبت بين عَبْس وذُبْيان ، ومَدْحِه هَرِمَ بن سِنَان والحارث بن عوف لسعيهما بالصلح بين الفريقين وتحملهما دِياتِ القتلى .

---

(١) القداح : سهام الميسر ، واحدها قِدْح . والربذ : السريع . يقول : هتكت الدرع عن رجل سريع اليد خفيفها في اجالة القداح في برد . وخص الشتاء لأن الجاهليين كانوا يكثرون الميسر فيه لتفرغهم له عن رجل يهتك رايات الخمارين أي كان يشتري جميع ما عندهم من الخمر حتى يقلعوا راياتهم لنفاد خُمرهم . ملوّم : على امعانه في الجود.

وما في معلقة عمرو بن كلثوم من وصف أمره مع عمرو بن هند ، وتهكّمه به . وقصته معه مشهورة .

وما في معلقة الحارث بن حِلِّزة من تعيير التغلبيين أعداء قومه بكر ، وذكره كثيراً من أيام العرب ، ومدحه عمرو بن هند ، وذَكره حُسْنَ بلاء قومه عنده . وما ذكرناه قليل من كثير ، وشعاع من ضياء شمس متوقدة ، أردنا باجماله إظهار ما يحاول الدكتور طمسه من الحقائق.

بقي علينا أن نشير الى قول الدكتور : " إن المذهب الشعري في الجاهليين والاسلاميين واحد " فنقول : إن من يمعن النظر في أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين يجد أن أساليبهم فيها كانت تتطور تدريجاً . والدكتور جرى في عبارته هذه على ما اعتاده من الاجمال والابهام ، ليخدع الناس ، فيظنوا أن وراء أوهامه حقائق وفلسفة . ولما كان غرضنا من هذا البحث هدم ما ادّعاه فيه ، من غير أن نطيل في اظهار الظاهر ، رأينا أن نلفت القارىء إلى خمسة أمور يظهر فيها اختلاف المذهب الشعري واضحاً ، وهي :

١ ـ الفرق ما بين غَزَل الجاهليين كامرىء القيس وعنترة وطَرَفة وغزل جرير وعمر بن أبي ربيعة من الشعراء الاسلاميين .

٢ ـ الفرق ما بين الجاهليين وبين الاسلاميين كجَرِير والفَرزْدَق والأخطل في الشعر السياسي والاجتماعي .

٣ ـ الفرق ما بين فخر عمرو بن كلثوم الجاهلي وفخر الفرزدق الاسلامي .

٤ ـ الفرق ما بين وصف الديار والنُّوق في الجاهلية ووصفهما في الاسلام .

٥ ـ الفرق ما بين مدح زهير وذمّه في العصر الجاهلي ومدح جرير والحُطَيئة وذمهما في العصر الاسلامي.

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (٤٥) من كتابه " في الشعر الجاهلي " "وإذا كان في مصر الآن قوم ينصرون القديم ، وآخرون ينصرون الجديد ، فليس ذلك إلّا لأن في مصر قوماً قد اصطبغت عقليتهم بهذه الصبغة الغربية ، وآخرين لم يظفروا منها بحظ ، أو لم يظفروا منها إلا بحظ قليل ، وانتشار العلم الغربي في مصر وازدياد انتشاره من يوم الى يوم ، واتجاه الجهود الفردية والاجتماعية إلى نشر هذا العلم الغربي ، كل ذلك سيقضي غداً أو بعد غد بأن يصبح عقلنا غربيا "

وأقول إن الدكتور يؤخذ عليه في عبارته هذه أمران ، وهما :

أولاً ـ عيُّها الفاضح لما فيها من الركاكة الممقوتة والتطويل الممل ، ولخلوّها من الايجاز البليغ . ولو تضلّع من مَعِين البلاغة لقال مكانها : "وإذا كان في مصر الآن أنصار للجديد وأنصار للقديم ، فذلك لأن الأوّلِين قد اصطبغت عقليتهم بالصبغة الغربية ، وأن الآخرين لم يظفروا منها بحظ أو ظفروا بحظ قليل . وازدياد انتشار العلم الغربي في مصر كل يوم واتجاه الجهود الفردية والاجتماعية الى نشره سيقضيان قريبا بان يصبح عقلنا غربيا " .

ثانيا ـ قوله فيها : " يصبح عقلنا غربيا " فكأن الدكتور يقيس الناس بها على نفسه ، وعلى فئة قليلة من أمثاله المفرِّطين . وما أدراه أن الناس ستصبح عقولهم غربية بالمعنى الذي يريده ؟ وما يمنع أن تحوطهم الحكمة بسياجها ، فتحفظهم من نزغات التجدد المُزرِي ، وتقودهم الرزانة إلى أخذ ما يحسن من مدنية الغرب وترك ما يقبح منها ؟ بل ماذا تجدي علوم الغرب على من سُلِب نعمة المنطق السليم ، وكان كالذي استهوته الشياطين في الأرض ، حيران ، ينكر المحسوس ، ويؤمن بالأوهام ، ويكذّب رواية القرآن ، تبعاً لنزوات فلسفة خرقاء تتقاذف به أمواجها ، ويصدّق غير الثقة من الرواة تأييداً لأباطيل يعجبه رواجها ؟

إن كان الدكتور يريد عقـلاً غربيـا فانــه عقل كغيـره ، فيــه الغث والسمــين ، والطيب والخبيث ، والمعــوجّ والمستقيم . أليس من الغـربيـين أولئــك المؤرخون الذين زعموا أننا نعبد محمداً صلى الله عليه وسلم وكذّبهم هنري دي كاستري في كتابه " سوانح وخــواطر " ؟ أليس منهم المستهتَــرون والخلعــاء المتهتكون ؟ أليس منهم المتلاكمون لعباً والمتراقصون ذُكْرانُهم وإِناثهم في المشاهد التصــاقاً ؟ أليس منهم الرافقون بالحيوان والكلاب رياء وشهوة ، والذابحون الانسانية على مذبح المطامع والقسوة ذبحا ؟

للدكتور أن يخرج من صف " الأزهر " الثامن قبل أن يدرس علومه العالية ، وله أن يكتفي بدراسة تاريخ الأدب في الجامعة المصرية ، ثم يدرس في باريس تاريخ الادب الافرنسي دراسة يكبره بها المفتونون ، ويرجع مُدِلًّا بتفرنجه ، ساحباً أذيال خيلائه ، نعم له أن يفعل ما شاء مما يختص بنفسه ، وأن يجعل عقله غربياً ، وأما عقول الناس فليس له سبيل عليها ، بل هي حــرة في أن تكون اســلامية حقيقيــة تعشو إلى أضواء هذه المدنية وهي محترسة من دخن ذُبَالاتها المحترقة .

"الشعر الجاهلي" في الميزان

قال الدكتور طه حسين في الصفحة ٣٨ من كتابه " في الشعر الجاهلي " : " تلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقةً ولا عُسْراً ، حتى إنك لتحسّ كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدَّ على قَدّ القرآن والحديث ، كما يُقدُّ الثوب على قَدّ لابسه ، لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعةً . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رُزِقوا حظاً من السذاجة لم يتح لنا مثله« . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة ، وعلى أن نسأل أنفسنا : أليس يمكن أن لا تكون هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة ، وإنما هي شيء تُكُلِّف وطُلِب وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي ؟ "

فالدكتور ، بعبارته هذه ، يزعم أن الشعر الجاهلي في شواهده قُدَّ عَلَى قَدّ القرآن والحديث ، كما يُقدّ الثوب على قَدّ لابسه . ويستنتج من ذلك ترجيح

كونه شعراً مكذوبا أنفق المتقدمون في تزويره بياض الأيام وساد الليالي . ورداً على ذلك نقول :

أولاً - إن علماء التفسير والحديث يعلمون أن أكثر شواهدهما مأخوذ من أشعار المخضرمين ، كلَبِيد وحَسَّان والنابغة الجعدي والخنساء وعمرو بن معد يكرب ، ومن أشعار الاسلاميين كالفرزدق وجرير ورُؤْبة والعَجَّاج وذي الرُّمَّة وأبي تَمَّام والبُحْتري والمتنبي والمَعرّي . وتفسير الكشاف للزَّمَخْشَري أكثر التفاسير شواهد لغوية ، وهو من أصدق الأدلّة على دعوانا ، فاذا استثنينا من شواهد الشعر اللغوية أشعار المخضرمين والاسلاميين ، وهي اكثرها ، أصبحت شواهد الشعر الجاهلي غير كافية للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث وعلى نحوهما ومذاهبهما الكلامية .

ولزم أن لا يكون الشعر الجاهلي ، كما زعم الدكتور ، مقدوداً على قَدّهما كما يُقدّ الثوب على قَدّ لابسه طولا وسعة . وقد يعترف لنا الدكتور بأن شطر ثوبه الاصغر لا يمكن أن يجيء بالتفصيل على قدر جسمه ما لم يرقعه برقع تعدل شطره الآخر . . . وهذا اللزوم ، الذي أثبتناه مناقضاً لما استنتجه الدكتور ، يسوّغ لنا أن نحكم إما بأنه يجهل تفسير القرآن والحديث وشواهدهما الشعرية ، وإما بأنه مُتَعَنِّت يميل مع الهوى في استنتاجه . وكلا الأمرين ذميم ، لا يليق بأستاذ يدعي

التبحر في العلم والفلسفة .

ثانيا ـ إذا كان أكثر شواهد القرآن والحديث من غير الشعر الجاهلي ، كما هو الواقع المحسوس ، وسلّمنا جَدَلاً بأن الشعر الجاهلي والمخضرم والاسلامي مقدود على قَدّ القرآن والحديث ، وجب أن يكون الشعر المخضرم والاسلامي مشاركاً للشعر الجاهلي في حكم التصنيع والتزوير ، لا أن يختصّ الشعر الجاهلي بهذا الحكم كما استنتج الدكتور.

ثالثا ـ اذا كان الدكتور يَعْجَب لعثور العلماء على الشاهد عندما يبحثون عنه لكلمة غريبة في القرآن ، أو لوجه من وجوه إعرابه وأساليبه ، فقد يكون عجبنا أشدّ لو أنهم لم يعثروا عليه بعد البحث . ذلك لِمَا في لغتنا من الثروة الشعرية الوافرة في عصور الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين . وإنّ الاستشهاد بقريب من ألف بيت من أشعارهم التي تبلغ مئات الألوف لا يدلّ على دقة الموازاة التي زعمها وكانت عنده مثاراً للشك في صحة الشعر الجاهلي ، وَمِظَنَّة لتكلفه وتزويره . بل المعقول أنّ ذلك الاستشهاد نتيجة نتجت من عناية العلماء بقرآنهم وأحاديث نبيهم . وكان على الدكتور أن يبيّن لنا ذلك المقياس الذي قاس به الشعر الجاهلي على القرآن والحديث حتى عرف ما بينه وبينهما من دقة الموازاة المزعومة ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لم يجد في ذلك حقائق

علمية مقنعة سوى ما تعـوده من الغمغمة في البحث وإثارة الشبهات بها ، لحاجة في نفسه يريد قضاءها.

رابعاً ـ لا يسلم شعر أي أمة في أي عصر من خطأ بعض الرواة وتزويرهم لشيء منه . وطريقة الوصول إلى معرفة هذا الشعر المزور معروفة عند علماء النقد ، وهي البحث عن حـال الراوي ومنـزلته من الثقـة ، والنظر في أسلوب ما رواه ، والمقايسة بينه وبين غيـره بمقياس الذوق السليم والعقل الراجح ، ليعرف مكانه من الشاعر الذي نُسِب إليه ، والعصر الذي ظُنَّ أنه قيل فيه . وأما أن يُنْكرَ شعرُ عصرٍ من العصور جملةً ، ويُدَّعَى تزويره كله لشبهة التزوير في بعضه ، فذلك من مبتكرات الدكتور التي لم يسبقه إليها أحد من الشرقيين ولا من الغربيين ، ولله في خلقه شؤون.

خامساً ـ في عبارة الدكتور عيّ وركاكة لا يخفيان على النـاقد المتبصـر، ولم نشأ أن نضيـع الوقت بتهـذيبهـا لطولها.

"في الشعر الجاهلي" في الميزان

قــال الدكتور طه حســين في الصفحة ٧٨ من كتــابه "في الشعــر الجاهــلي" " فالمعتــزلة يثبتــون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين ، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة ، معتمــدين على شعر الجاهليين . وما أرى إلا أنك ضاحك مثلي أمام هذا الشطر الذي رواه بعض المعتزلة ليثبت أن كرسيّ الله الذي وسع السماوات والأرض هو علمه . وهذا الشطر هو قول الشــاعر (المجهـول طبعا) :

"ولا بُكرسيّ علم الله مخلوق "

فهذه العبارة ساقها الدكتور للاستدلال عَلَى أن الشعر الجاهلي مصنوع . ولنــا عليها مــآخذ أربعــة وهي :

أولاً ـ إن المفسرين الذين أوردوا هذا الشطر دليلاً عـلى أن الكرسيّ في قـوله تعـالى : ﴿ وَسِعَ كُـرْسِيُّـهُ السَّماواتِ والأرض ﴾ معناه العلم ، لم يذكروا أن قائله شـاعر جـاهلي ، ومن عـادتهم أن يستشهدوا بـالشعر الجاهلي وبالشعر الاسـلامي . فمن أين أتى الدكتـور أنهم قد نسبوا هذا الشاهد إلى الشعراء الجاهليين ؟؟ وهل كان استنباطه هذا على مذهب ديكارت أيضاً ؟؟

ثانياً ـ إن المفسرين الذين استشهدوا بهذا الشـطر

أوردوه هكذا : ولا يُكَرْسِيءُ علمِ الله مخلوقُ بصيغة المضارع المهموز ، على أن ماضيه كَرْسَأ بمعنى ليستَدلّوا به عَلَى ان الكرسي معناه العلم ، ومأخوذ من هذا الفعل . ومعنى الشطر على زعمهم : يعلم علم الله مخلوق. فأوهم الدكتور في ذلك ، وأورد فعل هكذا (بكرسيّ) اسماً مجروراً بالباء . فصدق فيه المثل القائل : سمعاً فأساء جابة .

ثالثاً ـ إن انتقاده لهذا الشطر مسبوق ، قلّد فيه علماء النقد الأقدمين . قال ابن قتيبة في التأويل : وفسّروا القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردّوه الى مذاهبهم ، ويحملوا التأويل على نِحَلِهم ، فقال فريق منهم في قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ أي علمه ، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف وهو : ولا يكرسىء علم الله مخلوق .

رابعاً ـ إن اختلاف شيء من الشعر الجاهلي أو الاسلامي لا يستلزم أن يكون كل الشعر الجاهلي مختلقاً ، كما استنتج الدكتور ، وإن استنتاجه هذا فلسفة منطقية عجيبة لم يسبقه إليها أحد ، فهي بمثابة قولك : بعض الشيء مكذوب وما كان بعضه مكذوباً فكله مكذوب وهل يصدّق الدكتور إذا قلنا له ، قياساً على منطقه هذا : بعض الدكتور عَظْم ، وما كان بعضه عظماً فكله عظم ، والنتيجة على مذهبه كل

الدكتور عظم لا لحم فيه ولا جلد ولا غيرهما !!

قال الدكتور طه حسين في الصفحة (٥١) من كتابه في الشعر الجاهلي ولعل النبي لو عُمِّر بعد فتح مكة زمناً طويلاً لاستطاع أن يمحو تلك الضغائن ، وأن يوجّه نفوس العرب وجهة أخرى ، ولكنه توفي بعد الفتح بقليل ، ولم يضع قاعدة للخلافة ، ولا دستوراً لهذه الأمة التي جمعها بعد فرقة ، فأي غرابة في أن تعود هذه الضغائن إلى الظهور ؟

فالدكتور ، بعبارته هذه ، يدّعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يضع قاعدة للخلافة ولا دستوراً لهذه الأمة ، وأنه لو وضعهما لما عادت ضغائن العرب ، ونردّ عليه ذلك بما يأتي :

أولاً ـ إن القواعد والأصول التي ينبغي أن يضعها الشرع الاسلامي للخلافة إنما هي التي تصلح لكل زمان ومكان ، ولا يصلح لهما غير العام منها . أما ما كان خاصّاً ، كطُرُق انتخاب الخليفة ، وكونه على درجة أو درجتين ، وكبيان من لهم حق انتخابه ، فلأنها أمور جزئية تختلف باختلاف الأزمنة وأحوال الأمة ودرجة رقيها ، لم يشأ الشارع أن يتعرض لها ، بل تركها لاجتهاد ذوي الحلّ والعقد وأولي الرأي الحصيف والكلمة المطاعة فيها . ألا يعلم الدكتور أن الأصلح للأمة ، إن غَلَبت عليها الأمية ، أن يكون انتخابها على

درجتين ، وإذا غلب فيها المتعلمون أن يكون على درجة واحدة ؟ وإلى القارىء ما سنّه الشرع الاسلامي من أصول بالخلافة العامة :

١ ـ وجوب التشاور في انتخاب الخليفة وفي كل امر ، لقوله تعالى : (وأمرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) وقوله : ﴿ وشاوِرْهُمْ في الأمْرِ ﴾ .

٢ ـ وجوب إطاعة الخليفة ، لقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولِي الأمرِ منكم) .

٣ ـ منع خروج الأقلّين على الخليفة الذي ترضى عنه جماعة المسلمين . لأن رضا الأكثرِين عنه دليل صلاحه ، ما لم يكونوا غير صالحين . فعندئذ يكون التقصير منهم ، لأنهم لم يصلحوا أنفسهم ، ويجتمعوا على استبداله بخيرٍ منه ، لحديث من أتاكم وأمْرُكم جَميعٌ على رجلٍ واحد يريد أن يشقَّ عصاكم أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه . وحديث من فارق الجماعة شِبراً فميتته جاهلية .

٤ ـ وجوب استبدال الخليفة غير الكَفِيّ بغيره ، لحديث والطاعة عَلَى المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وحديث استعينوا على كل صنعة بأهلها .

٥ ـ وجوب أن يكون الخليفة قرشياً ما دام ذا عصبية ومقيماً للدين ، لحديث لا يـزال هذا الأمـر في قريش ما بقي منهم اثنان . وليس المراد من هذا الحـديث مجرد الاخبـار ، بـل وجـوب العمـل بمضمونه ، بـدليل قـوله : أقـاموا الـدين في حديث هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين .

وإنما اشترط القرشية في الخلافة لقوة عصبيتها في زمانه صلى الله عليه وسلم ، فاذا وجد من غير قريش من هو أكفَى في ذلك من القرشي رَجَح عليه ، لحديث وأطيعوا وإن استُعْمِل عليكم عبدٌ حَبَشيّ كأن رأسـه زَبِيبة أي في الصِّغَر وحقارة اللون ، لأن رؤوس الحبشة كذلك .

فـالشرع الاسـلامي إذن ، أو النبي عَـلَى رأي الدكتور ، قد وضع للخلافة قواعد ودستوراً ، ولم يمت الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أكمل الله دينه بسنهِ جميع الأصول الأدبية والسياسية والمدنية العامة .

تلك الأصول التي كنا أيام تمسّكنا بهـا سادة العـالم في العلم والعدل والرقي الانساني الفذ . وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : (اليوم أكملت لكم دِيْنَكُمْ وأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمتي ، ورَضِيتُ لكمُ الاسلامَ دِيناً) . ولكن مـاذا نعمل لفلسفـة الدكتـور الغريبـة ؟ الله يقول :

(أكملت لكم دينَكم) ويبهر فلاسفة العالم بأصوله الحكيمة ، وهو يصرّ عَلَى القول بأن الدين ناقص يحتاج إلى تكميل ؟ !

ثانياً ـ إن الضغائن التي ظهرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن سببها نقص التشريع ، كما زعم الدكتور ، وإنما سببها تغلب الأهواء البشرية ، وكدأبها أحياناً ، وتأصُّل العصبية الجاهلية في بعض النفوس ، وأيّ ذنب للقانون العادل إذا أساء القاضي فهمه ، أو خالف أمره ونهيه ؟ ولو درس الدكتور دستور الدين جيّداً ، وقدر قواعد الخلافة حقَّ قدرها حين مثلها الرسول والصدّيق والفاروق من بعده ، لرجع عن رأيه وأدرك مبلغ خطئه في حكمه . ولكنها إحدى حُظيَّات لُقْمان !